

العمارة الإسلامية في العهد الأموي

UMAYYAD ARCHITECTURE

(م 41-661 هـ 750)

القصور الأموية - Umayyad Palaces

لم تكن المساجد هي المباني الوحيدة التي أنشئت في الفترة الأموية والتي وصلتنا آثارها أو أخبارها. فإلى جانب حركة بناء المساجد التي تمثل العمارة الدينية، وصلتنا أخبار قصور عديدة شيدتها الأمويون تمثل الجانب المدني للعمارة. لكن القصور واستخدامها مقتربن إلى حد كبير مع استمرار بانيها، فهي عكس المساجد ذات الوظيفة المستمرة، عرضة للزوال ولا سيما ضمن المدن حيث الحاجة المستمرة للأراضي المخصصة للبناء. لذلك لا نجد للقصور الأموية ضمن المدن أي أثر. ومنها مثلاً قصر الخليفة معاوية في دمشق المعروف بقصر الخضراء، الذي كان مقراً للخلافة الأموية ودمر على يد العباسيين.

ولكن الفترة الأموية تميزت ببناء العديد من القصور خارج المدن وعلى أطراف البايدية، التي نجد آثارها إلى اليوم في مختلف أنحاء بلاد الشام. من هذه القصور:

- في سوريا: قصر الحير الغربي وقصر الحير الشرقي وقصر أسيس
- في الأردن: قصرين عمرة وقصر حرانة وقصر المشتى وقصر طوبه وقصر المؤقر وقصر الحلابات
- في فلسطين: قصر هشام (خربة المفجر) وقصر المنية
- في لبنان هناك موقع أموي عبارة عن مدينة تسمى عنجر

آثار وجود هذه القصور على أطراف البايدية تساؤلات كثيرة. اعتقد العلماء لفترة طويلة أن الغرض من إقامة هذه القصور هو الاستجمام والقرب من البايدية لممارسة الصيد وأن الخلفاء كانوا يتوقفون إلى حياة أسلافهم في البايدية. ولكن الدراسات المعمقة لهذه المنشآت أدت إلى تغيير هذه النظرة. فهذه القصور لم تكن قائمة بمفردها بل كانت جزءاً من نظام عمراني متكملاً يضم مساجداً وخانات وحمامات وقاعة للعرش وأخرى للاستقبالات الرسمية وفراغات سكنية لتزول الحاشية والجنود والخدم. وكانت تضم أيضاً البساتين والمرعى والسدود والأقنية، وتقوم ضمن منطقة زراعية متطورة. أي أنها كانت مركزاً لمناطق واسعة يسيطر عليها الخليفة ويوطد من خلالها علاقته مع القبائل الموالية له.

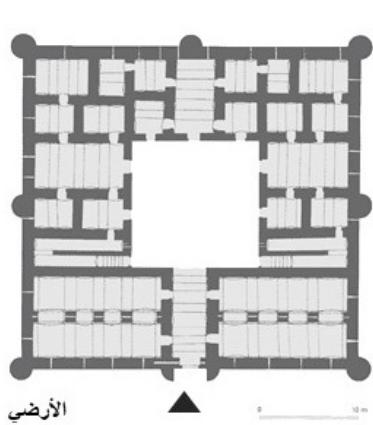
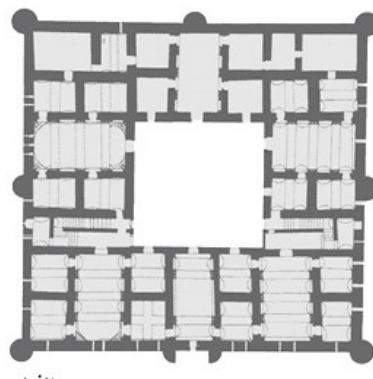
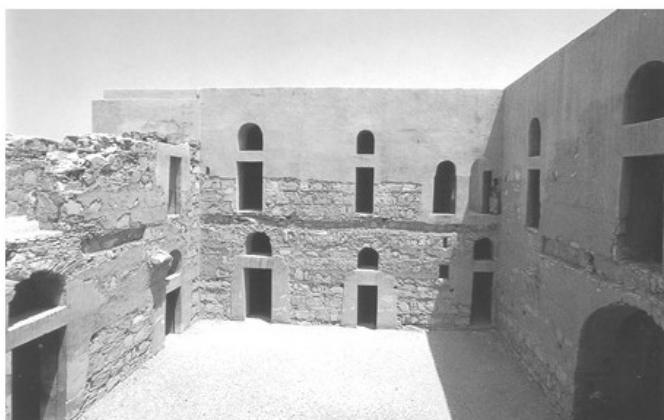
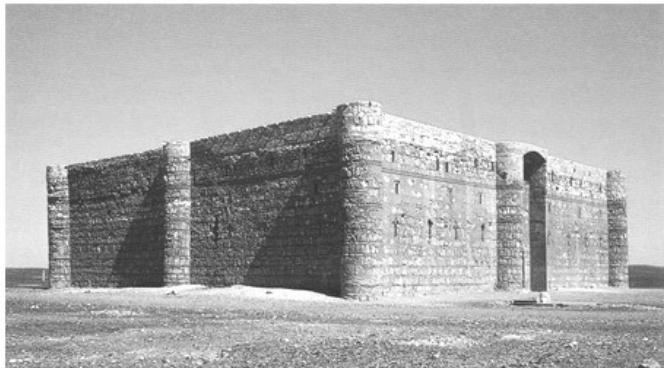
أسباب تشييد القصور الأموية:

1. حرص الخلفاء على الاتصال مع القبائل العربية المؤيدة لهم، فكانت القصور مراكز لهم على أطراف البداية.
2. الاهتمام بالزراعة وتوسيع رقعة الأراضي الزراعية عن طريق إنشاء السدود والأقنية.
3. تطور حياة الترف والرفاه وعدم إقامة الخليفة في مكان واحد على مدار السنة، إنما احتياجه إلى مكان للاستجمام وممارسة الصيد

1. قصر حرانة Qasr Harrana

يقع قصر حرانة في الأردن على بعد 55 كم إلى الشرق من عمان. شيد حوالي عام 710 م أيام الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك.

القصر مربع الشكل، طول ضلعه 40 م تقريباً، تحتل زواياه الأربع أبراج دائيرية، بينما يتوسط الجدران الخارجية برج نصف دائري، ما عدا في الجهة الجنوبية حيث يقع مدخل القصر، الذي يتوسط برجين ربع دائريين يمتدان إلى أعلى المبنى ليربط بينهما قوس يشكل بوابة مميزة.



قصر حرانة: مساقط - لقطة خارجية من الجنوب الغربي - الفناء الداخلي

القصر مبني من الحجارة المنحوتة التي تتناوب مع صفوف من القرميد بعضها يشكل صفاً تزييناً. وجود نوافذ ضيقة، تشبه مرامي السهام، موزعة ضمن الجدران الخارجية يزيد في إعطاء المبنى طابع القلعة الدفاعية.

بوابة القصر تؤدي إلى فناء داخلي مربع تحيط به الإسطبلات وغرف الحرس وغيرها من الفراغات الموزعة بشكل متناقض. المبنى مؤلف من طابقين، يتم الصعود إلى الطابق العلوي عبر درجين يتم الوصول إليهما عبر الزاويتين الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية من الفناء. نلاحظ في المساقط تكرار مجموعة معينة من الفراغات، يتكون كل منها من فراغ مركزي كبير يحفي به أربعة فراغات، اثنان من كل جانب يتم الدخول إليها من الفراغ المركزي. هذه الوحدة التي يطلق عليها "بيت" أو "البيت السوري" تميز القصور الأموية وتعتبر وحدة سكنية أساسية فيها.

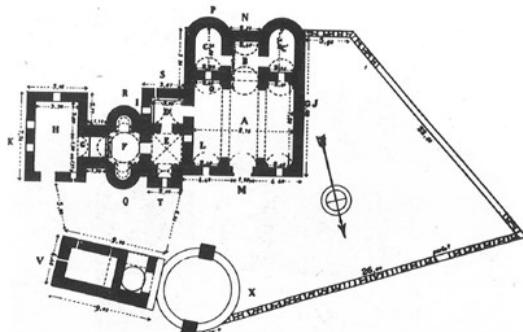
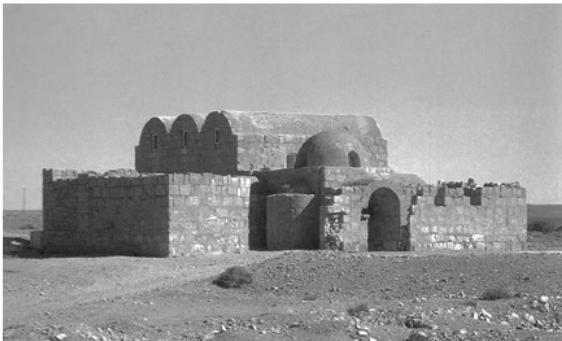
يتميز المبنى بالحلول الإنسانية، التي تم اختيارها لسقف الفراغات المختلفة باستخدام الحجر والقرميد مادة للبناء، والتي تكون من مجموعة من الأقواس التي تقسم الفراغات إلى مجازات أصغر يتم تغطيتها بقبوّات أسطوانية.

2. قصیر عمرة Qusayr 'Amra

يقع قصیر عمرة في الأردن في وادي البقم على بعد 100 كم إلى الشرق من عمان. وهو ينسب أيضاً إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك (96-86 هـ/ 705-715 م). أطلق عليه اسم قصیر لصغره بالمقارنة مع القصور الأخرى.

المبنى عبارة عن منزل مبني من الحجر المنحوت ومكون من قاعة كبيرة وحمام ملحق بها. يتم الدخول إلى القاعة المستطيلة، التي كانت تستخدم كقاعة عرش بشكل محوري من الضلع الطويل. القاعة مقسمة إلى ثلاثة مجازات، يعلو كل منها قبوة أسطوانية محمولة على الجدران الجانبية وعلى قوسين كبيرين وسطيين يستندان إلى دعائم جدارية. تتوزع مقابل المدخل ثلاث مقصورات. الوسطى مفتوحة على القاعة، يصلها بالمقصورتين الجانبيتين بباب صغير. تربط القاعة بالحمام المكون كالمعتاد في الحمامات الرومانية من ثلاثة أقسام: البارد (البراني)، الدافئ (الوسيطاني) والحار (الجواني). القسم الأخير مزود بمقصوريين ومسقوف بقبة، بينما سقف القسمين الآخرين عبارة عن قبوة أسطوانية وأخرى متصلبة. ويتصل بالحمام غرفة الرجل واللوقود.

تعود شهرة هذا القصر، رغم صغره، إلى كونه لا يزال محافظاً على إكسائه الداخلي ولا سيما على الرسومات الجدارية، التي تغطي القسم الأعظم من الجدران والقبوّات والقباب. هذه الرسومات تعتبر ذات أهمية خاصة في دراسة الفن الإسلامي المبكر في مجال التصوير. فمن اللافت للنظر أن مواضع اللوحات لا تتجنب تصوير الأشخاص، كما في المباني الدينية، بل على العكس. إذ نجد مشاهد الصيد والموسيقى ومشاهد لراقصات بالإضافة إلى لوحة شهيرة موجودة في قاعة العرش تمثل الوليد مع الملوك الذين انتصر عليهم المسلمون من أمثال كسرى وقيصر والنجاشي وملك الإسبان رودريك يقدمون الولاء للخليفة وفق التقاليد البيزنطية.

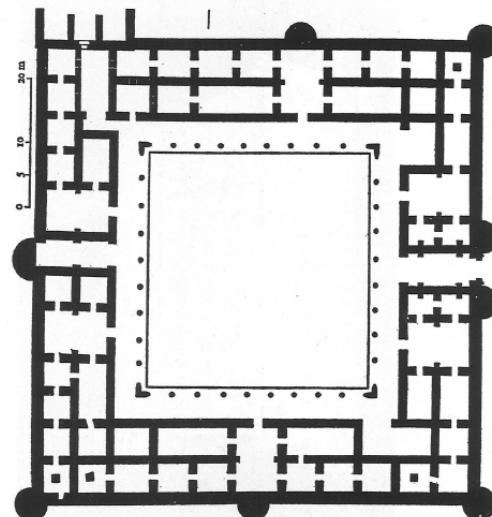
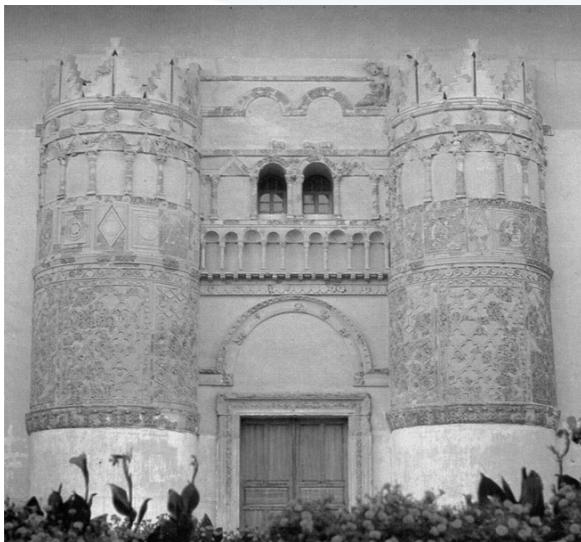


قصر عمرة: مسقط - واجهة غربية - قاعة العرش - بعض الرسومات الجدارية

3. قصر الحير الغربي Qasr al-Hir al-Gharbi

يقع قصر الحير الغربي في بادية الشام إلى الجنوب الغربي من تدمر. شيد في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (105-743 هـ). بني القصر في بقعة خصبة جلبت إليها المياه من موقع يدعى "خرقة" أقيم فيه سد حجري، وعثر حوله على آثار لحمام وطاحون وبساتين واسعة محاطة بسور من اللبن.

القصر ذو مسقط مربع، طول ضلعه 70 م، وهو محاط بسور مرتفع مزود بالأبراج نصف الدائرية في الأضلاع والدائريّة تقريباً في الزوايا، ما عدا الزاوية الشمالية الغربية التي يشغلها برج قديم لمبنى غساني. بوابة القصر تنفتح في منتصف الضلع الشرقي بين برجين نصف دائريين ينتهيان بشرفات مثلثة. البوابة تؤدي إلى دهليز يفضي إلى الفناء الداخلي المربع الذي يتوسط القصر. الفناء محاط في الطابقين برواق يتم الدخول منه إلى ست وحدات سكنية مستقلة من نموذج "البيت سوري" موزعة بشكل متناظر، يتوسط كل منها قاعة.



قصر الحير الغربي: مسقط الطابق الأرضي - واجهة المدخل المعاد بناؤها ضمن المتحف الوطني في دمشق

القصر مبني في جزئه السفلي من الحجر المنحوت ثم يستمر نحو الأعلى بالقرميد. جرى الكشف عن معالم القصر في فترة الانتداب الفرنسي بين عامي 1936-1938. ونقلت أجزاء من بوابة القصر وعناصرها المعمارية والزخرفية إلى متحف دمشق الوطني، الذي كان قيد الإنشاء في هذه الفترة. وتمت إعادة بناء الفراغات المحاطة بالبوابة داخل المتحف حيث تستخدم كقاعات للعرض.

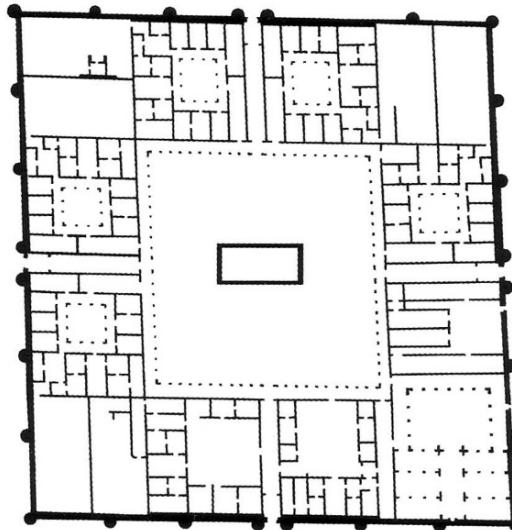
تشكل الزخارف الجصية العنصر التزييني الأساسي في الداخل والخارج. وتعتمد الزخارف الهندسية والنباتية، مثل عروق الكرمة وسعف النخيل والأزهار، كما نجد محاريب وشرافات متدرجة تشكل النهاية العلوية للبرجين نصف الدائريين للبوابة. ويشكل الجص درابزينات الطابق العلوي والشبك الذي يسد التواذن الذي تعلو الأبواب المطلة على الفناء. كما يلفت النظر تزيين المبني من الداخل بلوحات جدارية وزخارف جصية تضم تجسيداً للإنسان والحيوان وكلها اليوم معروضة في المتحف الوطني في دمشق.

4. قصر الحير الشرقي Qasr al-Hir as-Sharqi

هناك منشآت أخرى في بادية الشام معروفة بقصر الحير الشرقي تقع إلى الشمال الشرقي من تدمر على مسافة 100 كم تقريباً. وهي تعود إلى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك في حوالي عام 110 هـ.

تتكون آثار الموقع من مجموعة من المباني تضم قصراً صغيراً وآخر كبيراً، ببعضهما مسافة 42 م. كلا المبنيين مربع الشكل، الصغير طول ضلعه 70 م والكبير طول ضلعه 160 م. وهما محاطان بأسوار مدعمة بالأبراج نصف

الدائيرية والدائيرية تقريباً في الزوايا. يعتقد البعض أن ما يسعى القصر الصغير لم يكن قصراً وإنما خاناً ولكن المرجح أنه كان قصراً للخليفة. تتميز البوابة بوجود سقاطة لأغراض دفاعية فوق الباب.



قصر الحير الشرقي: مسقط الطابق الأرضي للقصر الكبير - صورة جوية للموقع - الواجهة الغربية للقصر الصغير

القصر الكبير أشبه بمدينة صغيرة قرب قصر الخليفة معدة لإقامة الحاشية. للמבנה أربع بوابات تقع في منتصف الأضلاع. البوابات تؤدي عبر ممرات طويلة وضيقة إلى فناء مركزي كبير محاط برواق. تتوزع حوله بيوت مستقلة تحيط بأفنية داخلية تنفتح عليها وحدات سكنية على شكل "بيت سوري" في إحدى الجهات. كما نجد مساجداً في الزاوية الجنوبية الشرقية من المبني يعتبر نموذجاً مصغرًا للجامع الأموي في دمشق، فهو يتكون من حرم وصحن محاط بالأروقة. الاختلاف هو بكون المئذنة منفصلة عن المبني، فهي برج مستقل، مربع الشكل، يقع بين القصرين.

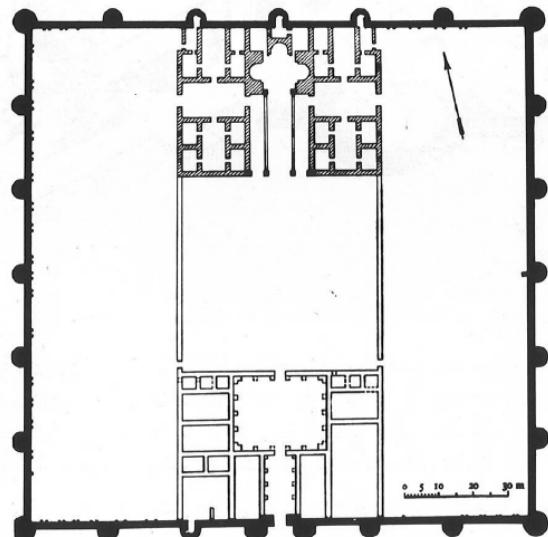
5. قصر المشتى Qasr al-Mushatta

قصر المشتى يعتبر من آخر القصور الأموية. فقد شيد في نهاية الفترة الأموية حوالي عام 750 م في زمن الخليفة الوليد الثاني ولم يتم الانتهاء من بنائه ولم يستخدم، رغم تميزه، لأن السلالة الأموية زالت.

يقع القصر في الأردن على بعد 25 كم إلى الجنوب من عمان. مسقطه مربع، طول ضلعه 150 م، سوره مزود بالأبراج الدائرية ونصف الدائرية. بوابة القصر تقع في منتصف الجهة الجنوبية ويحفل بها برجان مصلحان، يمتازان بزخارفهما الحجرية الرائعة.

بناء القصر لم يكتمل، ضمن سور نجد المسقط مقسما إلى ثلاثة قطاعات، لم يبن إلا الأوسط منها. هذا القطاع مقسم بدوره إلى ثلاثة أقسام. فهو يضم فناء مركزاً مربع الشكل إضافة إلى مجموعتين من المباني تمتدان شمال وجنوب الفناء. القسم الجنوبي يقع خلف البوابة مباشرة ويتألف من دهليز يؤدي إلى فناء مستطيل، حوله مجموعة قاعات وغرف، إلى الشرق من المدخل نجد مسجداً صغيراً.

أما الجناح الشمالي فهو مقسم بدوره إلى ثلاثة أجزاء، حيث يطل على الفناء ببوابة فخمة مؤلفة من ثلاث فتحات، تؤدي إلى ثلاثة دهليز. الأوسط، وهو الأوسع، يفضي إلى قاعة العرش، التي تتميز بمسقطها المحاط من ثلاث جهات بالمحاريب، التي تتوزع بينها غرف صغيرة. بينما يؤدي الدهليزان الجانبيان إلى فناءين تابعين لبيتین مستقلین، كل منهما مؤلف بدوره من جناح شمالي وأخر جنوي، مسقط كل منهما عبارة عن بيت سوري.



قصر المشتى: مسقط - واجهة الدخول التي تم نقلها إلى المتحف الإسلامي في برلين

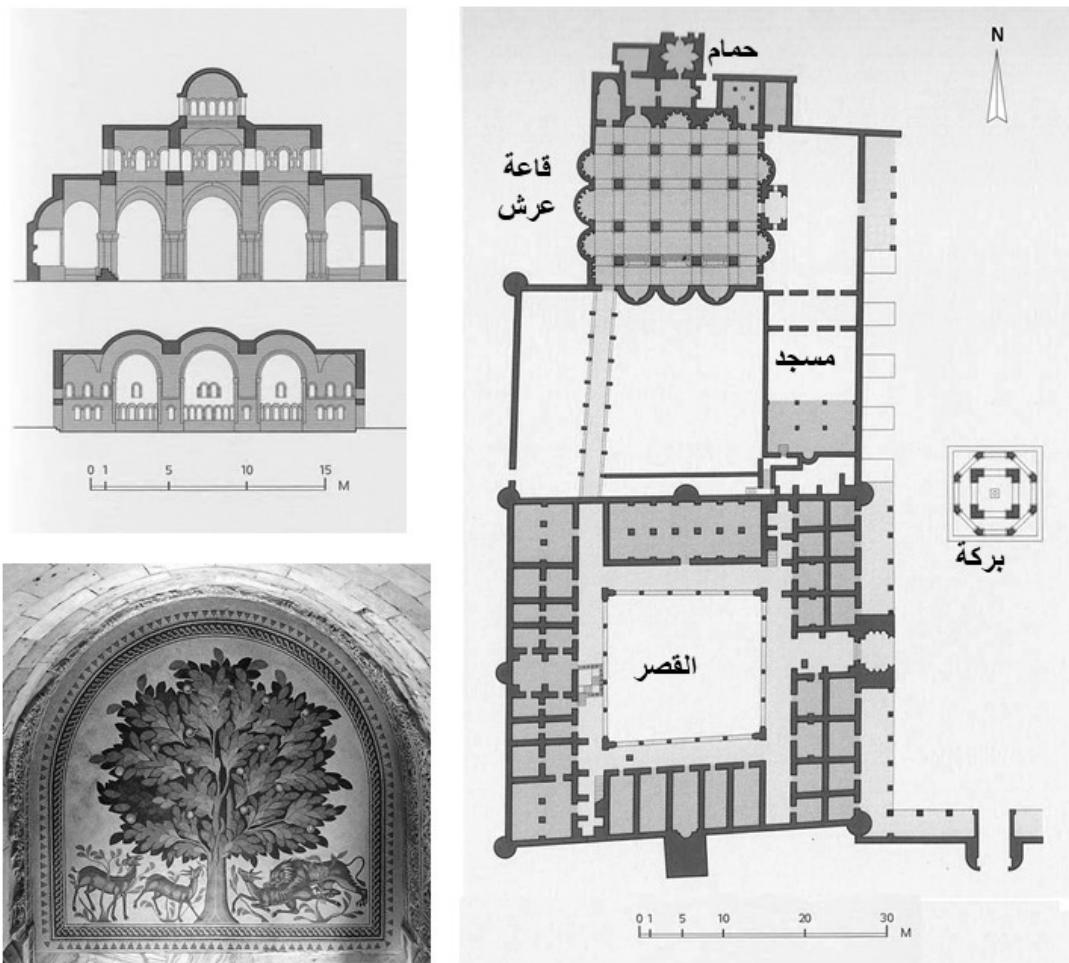
إنشاء القصر يعتمد على الدمج المتقن بين مواد البناء المختلفة، فالجدران مبنية من القرميد، أما الدعامات والأعمدة فمن الحجارة المنحوتة بإتقان والمزينة بتيجان مميزة.

نقلت بوابة القصر الحجرية في نهاية العهد العثماني إلى برلين حيث أهداها السلطان عبد الحميد للإمبراطور الألماني غيليليو، وهي تشكل إلى اليوم أهم معارضات المتحف الإسلامي. الزخارف الحجرية المتقنة تشكل شريطاً زخرفياً على شكل مسننات يغطي القسم السفلي من الواجهة تتخلله زهرات دائيرية. الزخارف لا تمثل فقط مواضيعاً نباتية وإنما تتخللها أنواع من الطيور والحيوانات، مما يذكر بأن إحدى وظائف هذه القصور أن تكون مركزاً للانطلاق للصيد.

6. خربة المفجر Khirbat al-Mafjar

تقع خربة المفجر المعروفة أيضاً بقصر هشام قرب مدينة أريحا في فلسطين. وهو ينسب إلى الخليفة هشام بن عبد الملك رغم عدم إثبات ذلك إلى الآن. القصر من أكثر المواقع الأموية فخامة وهو عبارة عن مجمع معماري يضم قصراً وحمامات كبيرة ومسجدًا.

يتقدم المجموعة باحة واسعة تتوسطها بركة مربعة يعلوها شادروان مثمن (قبة). أما القصر فهو على شكلة القصور الأموية. وهو يشغل الجهة الجنوبية من المجمع ويعد أقدم أجزاءه. مسقته مربع، طول ضلعه 60 م تقريباً، تتوزع على جدرانه الخارجية الأبراج الدائريّة ونصف الدائريّة. القصر مُؤلف من طابقين يتوسطه فناء محاط برواق يؤدي إلى القاعات والفراغات المختلفة، منها قاعة للعرش وتواوها في الغرب. للقصر بوابة رئيسة تنفتح في الشرق على الباحة الخارجية وعلى جانبيها رواقان تنفتح عليهما بعض الغرف.

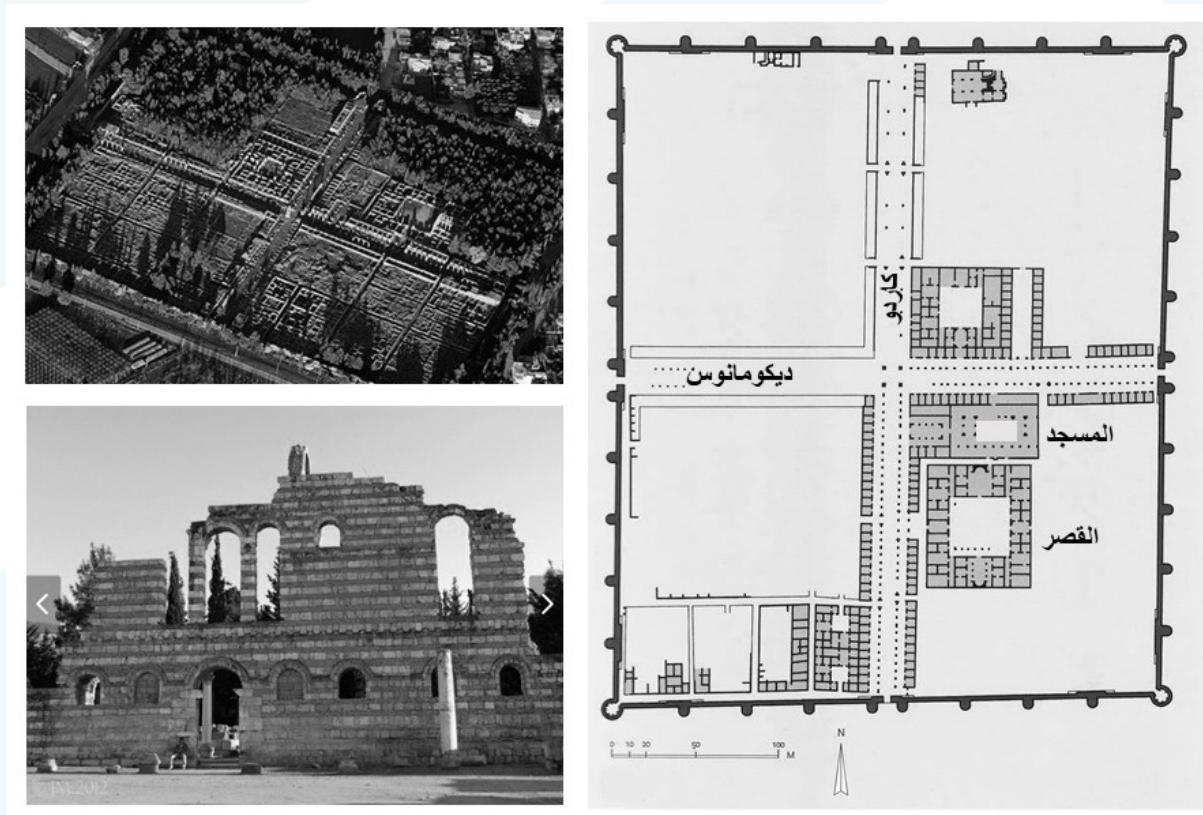


خربة المفجر: مقطع - مقطع طولي وعرضي في قاعة العرش - الفسيفساء في مقصورة الخليفة

يمتد إلى الشمال من القصر فناء آخر يحده من الشرق مسجد. ويشغل الحمام القسم الشمالي من المجمع ويرتبط مع القصر بممر مسقوف. يتالف الحمام، الذي تهدم القسم الأعظم منه، من قاعة واسعة سقفها محمول على 16 دعامة تقسمها إلى خمسة مجازات في كل جهة تنتهي الثلاثة الوسطى منها في كل جهة على شكل محراب. طريقة تسقيف القاعة غير مؤكدة ولكن يتوقع أنها كانت عبارة عن قبوات أسطوانية يزيد ارتفاعها بالانتقال إلى المجازات الوسطى وتتجه في الوسط قبة. تميز القاعة بأرضيتها المغطاة بلوحات الفسيفساء الحجرية. شمال القاعة تقع مقصورة الخليفة إضافة إلى حمام صغير يضم أجزاء الحمام التقليدية. تميز مقصورة الخليفة بأرضية من الفسيفساء هي عبارة عن لوحة شهرة تمثل مشهدًا لأسود وغزلان تحت شجرة فاكهة كبيرة.

7. عنجر Anjar

يقع موقع عنجر في سهل البقاع في لبنان بالقرب من الحدود السورية. أصل التسمية عين الجر. تنسب المدينة إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك، حيث عثر فيها على حجر يحمل اسمه، ومن المرجح أن الخليفة كان يقيم فيها صيفاً.



عنجر: مخطط المدينة - آثار القصر

المدينة مستطيلة الشكل أبعادها 400×320 م محاطة بسور ذي أبراج دائيرية في الزوايا ونصف دائيرية على الأضلاع. مخطط المدينة يتبع نظم التخطيط الرومانية. للمدينة أربع بوابات تتوسط أضلاع الأسوار وتؤدي إلى الشارعين الرئيين المتعامدين، أحدهما يمتد من الشرق إلى الغرب يدعى "ديكومانوس" والآخر يمتد من الشمال إلى الجنوب يدعى "كاردو". تحف بهذين الشارعين الأربعة، كما في المدن الرومانية، وهي تتقاطع في وسط المدينة مشكلة ما يسمى بالترابيل Tetravylon وهو نصب مكون من أربعة أعمدة. تقوم خلف الأربعة محلات التجارية والأسواق والمباني المختلفة، من بينها المسجد والقصر وبالقرب من السور وجد حمامان.

القصر يقع جنوب المسجد تماماً ليتمكن الخليفة من الوصول بسهولة إلى حرم الجامع عبر باب الزيادة المفتوح في جدار القبلة. مسقط القصر يتكون كالمعتاد من فناء داخلي محاط برواق، تحيط به القاعات والفراغات المختلفة مسقطها وفق مبدأ البيت السوري. ونلاحظ وجود قاعتين متقابلتين في الشمال والجنوب، تنتهي كل منهما بحنية تشبه المحراب وقد خصصت هاتان القاعتان لمجلس الخليفة، ما يسمى الديوان أو قاعة العرش.

أما مواد البناء وطريقة الإنشاء فتابعت تقليداً بيزنطياً وهو استخدام الحجر المنحوت والقرميد على شكل مداميك متناوبة. بينما نجد أن الأعمدة وتيجانها معادة الاستعمال على الأغلب وتعود إلى أبنية رومانية وبيزنطية أقدم عهداً. ولا تزال أعمال التنقيب مستمرة إلى الآن وقد تم الكشف في الجنوب الغربي للمدينة عن مساكن أموية مغلقة نحو الخارج ومفتوحة نحو الداخل على فناء داخلي تحيط به فراغات البيت المختلفة. اللافت للنظر هو المدخل الذي ينفتح على الفناء الداخلي بشكل محوري و مباشر، على عكس ما هو مأثور في كثير من بيوت الفترات اللاحقة (المدخل المنكسر). أما الفراغات السكنية المحيطة فهي مشكلة في جهتين من الفناء وفق نموذج البيت السوري، كما في القصور المختلفة والمولف من فراغ مركزي عميق يمتد من الفناء إلى الحدود الخارجية للمسكن ويحف به من الطرفين فراغان سكنيان مربعاً الشكل يتم الوصول إلهمما عبر الفراغ المركزي.

الخلاصة:

الصفات العامة للقصر والأموية

1. **التصميم:** نجد أن القصر الأموي يشبه الحصن بسوره المربع الشكل المرتفع المزود بالأبراج الدائرية في الزوايا ونصف الدائرية في الأضلاع والخالي من الفتحات. يتوسط القصر من الداخل فناء واسع مربع الشكل محاط بالأربعة، التي تتقدم مجموعة من الوحدات السكنية (البيت السوري) المؤلفة من قاعة مستطيلة يحف بها من الجانبين الطويلين غرفتان من كل جهة. تتميز إحدى هذه الوحدات لتضم قاعة العرش. يضم القصر في كثير من الأحيان مسجداً وحماماماً.

- .2 **مواد البناء:** شيدت القصور الأموية في بلاد الشام الغنية بالمقالع الحجرية، وبالتالي فمادة البناء الأساسية كانت الحجر بالإضافة إلى القرميد واللبن والجص.
- .3 **العناصر المعمارية:** نجد الأعمدة الرخامية والحجرية، والدعائم الحجرية أو القرميدة. الأقواس نصف الدائرية وحدوية. واستخدمت الأسقف الخشبية المستوية والقبوّات بأنواعها المتصلبة والأسطوانية وأحياناً القباب.
- .4 **العناصر الخزفية:** استخدمت الفسيفساء الحجرية في الأرضيات والرخام في إكساء الجدران والرسوم الجدارية بالإضافة إلى الزخارف والنقوش الحجرية والجصية المتقنة، ونلاحظ أنه لم يتم الابتعاد عن تصوير وتجسيد الإنسان والحيوان على عكس ما كان متبعاً في المباني الدينية.